الشيخ العلامة محمد الحفناوي بديار فقيه مصلح ووطني غيور

الأستاذ محمد بن رقطان

حضرات الأساتذة الأفاضل
السادة الحضور الكرام
السلام عليكم ورحمة الله تعالى وبركاته

أود في البداية أن أتوجه بالشكر والتقدير، إلى صاحب المعالي الأستاذ الدكتور أبي عبدالله غلام الله، وزير الشؤون الدينية والأوقاف راعي هذه الأمسية الثقافية العاصمية، الذي تفضل مشكورا بدعوتي لأقدم أمامكم نبذة عن حياة وجهود وأفكار الشيخ العلامة محمد الحفناوي بديار، أحد الفقهاء المصلحين والوطنيين الشرفاء الغيارى على الدين والأمة والوطن، حسب ما كان يتردد على ألسنة الناس في منطقة قالمة وضواحيها، وما وجدناه مسطورا بخط يده في بعض المخطوطات التي تركها، واطلعت عليها في زاوية والده الموجودة بقرية الناظور بلدية بني مزلين من ولاية قالمة.

وقبل أن أشرع في تقديم ترجمة مختصرة عن حياة هذا العلم المغمور، أحب أن أعطيكم صورة وجيزة عن والده مؤسس هذه الزاوية الشيخ اعمارة بديار المولود سنة 1832 بعرش النبائل بنواحي قالمة، حيث نشأ وترعرع، وبدأ حفظ القرآن الكريم على يد الشيخ محمد الفالح الفرشيشي من فراشيش منطقة الكاف التونسية، الذي قدم إلى عرش النبائل وفتح به كتابا لتعليم القرآن الكريم، ولما قرر العودة الى موطنه تونس رافقه الشيخ عمارة، ولازمه حتى حفظ كتاب الله بغاية الرسم والتجويد والإتقان، وقفل عائدا الى عائلته، ففرح به والده، فرحا كبيرا، وأقام له حفلا بهيجا ثم عرض عليه أن يزوجه بإحدى كريمات الأسر الحسيبة، فاعتذر له، وطلب منه الإذن بالذهاب إلى طلب العلم، فاذن له فاختار أربعة من

حفاظ القرآن الكريم من أبناء المنطقة ثلاثة منهم من عرش النبائل والرابع من عرش طلحة واتجهوا مشيا على الأقدام صوب الغرب يقطعون القرى والأرياف إلى أن اهتدوا عن طريق الصدفة إلى زاوية محمد بن علي أمزيان المشهور بالشيخ الحداد في ناحية صدوق من بلاد القبائل الصغرى، فطلبوا إستقباله فاستقبلهم وسألهم عن غرضهم فأخبروه أنهم جاؤوا يطلبون العلم، فضمهم إلى زاويته العامرة يومئذ فقضوا بها سنوات درسوا خلالها علم الفقه وعلم التفسير وعلم النحو والصرف وعلم الحساب والفلك، وتحصلوا على الجائزة الصغرى ثم الكبرى، ولما لاحظ الشيخ الحداد علامات الصلاح بادية على تلميذه الشيخ اعمارة بديار، دعاه ذات يوم وأدخله خلوته وعلمه مبادئ الطريقة الرحمانية، ولقنه الأسماء السبعة، وطلب منه العودة إلى مسقط رأسه والشروع في تعليم ابناء منطقته القرآن الكريم والعلوم التي تعلمها، وأوصاه بالعمل على بناء زاوية في نواحي قالمة للمحافظة على القرآن الكريم وعلوم الدين خلفا عن سلف، فرجع الشيخ اعمارة بديار إلى عرش النبائل، وشرع في تعليم أبناء العشيرة والأهل مدة من الزمن، ثم فتح الله عليه فاشترى أرضا بقرية الناظور التي تبعد بنحو 20 كلم عن مدينة قالمة، ونصب بها خيمة أسكن فيها عائلته على عادة العرب، وبنى كوخا جعله مدرسة لطلبته وذلك حوالي 1869، ثم بنى مدرسة ومسجدا ومسكنا ومرافق أخرى، وأخذ صيته ينتشر بين الناس وسمعته تتألق، وراح نشاط الزاوية يتسع ويتنوع إلى أن صارت دائرة أتباعها والمريدين والأنصار والمتعاطفين تمتد من سوق أهراس شرقا إلى عين أعبيد غربا، ومن عين البيضاء جنوبا إلى عنابة والطارف وعزابة شمالا.

وأمام هذا التوسع الكبير في النشاط والأتباع وتزايد عدد التلاميذ الوافدين على الزاوية تعذر على الشيخ اعمارة التوفيق بين التدريس اليومي في الزاوية والنشاط الخارجي فضلا عن الإستقبال الدائم للوفود الزائرة. فجلب خمسة شيوخ بالتعاقب للتدريس، وتفرغ هو للمهام الأخرى، وقد عرفت الزاوية[1] في هذه المرحلة كثافة في النشاط، واكتسبت سمعة وشهرة كبيرتين، فتوجست الإدارة الإستعماريةالمحلية خيفة، وقررت تحديد حرية الشيخ اعمارة ومنعه من التحرك خارج زاويته بدون رخصة، وفرضت على كل من يريد الإتصال به الحصول على رخصة مكتوبة مسبقا، ولم تكتف بهذا الإجراء التعسفي الجائر، بل ألقت عليه القبض وأدخلته السجن في مدينة قالمة، وحتى بعد إطلاق سراحه ظل بعض

1 - الشيخ البشير بن خالد القبائلي

الغلاة من أعوان هذه الإدارة المتغطرسة يضايقونه ويستفزونه إلى درجة جعلت إخوانه يقترحون عليه الإنتقال إلى مدينة قالمة خوفا على حياته .

وعن هذه المضايقات والتحرشات والأذى يقول الشيخ محمد الحفناوي في معرض الحديث عن حياة والده وجهوده وحسن بلائه وصبره :(وكانت المراقبة من الحكومة عليه شديدة وقد أدخل في أول أمره السجن بقالمة، وكان لايتوجه لوطن من الأوطان- كذا- إلا بالإذن، ولايزوره إخوانه إلا بالإذن، ثم إمتحنه الله سبحانه وتعالى ببعض الأشرار من الكفار اللئام أعداء الإسلام ،فصبر واحتسب أجره على الله تعالى) وفي موضع آخر من هذه الترجمة يقول :(لما شددت الحكومة على والدي المراقبة، وفرضت عليه عدم الخروج إلى أي مكان بدون رخصة، فأشار عليه بعض الأصدقاء بالإنتقال إلى قالمة، فاشترى-رحمه الله- برجا بقرب السور الغربي بقالمة، ولما توفي بقي عليه دين يقدر بثلاثة ألاف وخمسمائة فرنك، وديون أخرى من جانب بني ميزاب، لأنه كان فقيرا وجاءت سنة المجاعة، وهو عام الأرز، فبعت البرج والبلدة التي بقرب الأحمارة- مكان بالجهة- وخلصت بها جميع الديون، وما بقي من ثمن، اكتلت به الزرع للعائلة وطلبة العلم والقرآن) . وقد توفي الشيخ اعمارة في شهر ديسمبر سنة 1901. واكتفي بهذا القدر، وأعود بحضراتكم للحديث عن حياة إبنه الشيخ محمد.

الحفناوي موضوع هذه المداخلة.

ولد الشيخ العلامة محمد الحفناوي بديار خلال سنة 1880 بقرية الناظور، فحفظ القرآن الكريم كله على يد والده، وأخذ عنه علم الفقه والتوحيد والنحو والصرف والحساب، ثم درس على العلامة الحسن بن خالد القبائلي في زاوية والده، كتاب أبي الضياء المسمى سيدي خليل على شرح الخراشي، وعلم التفسير على شرح الخازن، وخلف والده ولما يستكمل تحصيله العلمي، وعمره حوالي 21 سنة ، فظل ينهل من علم ومعارف الشيخ العلامة إبراهيم بن الحاج مسعود الطلعي، أحد تلاميذ الشيخ الحداد في منطقة الشافية بولاية الطارف الحالية، ومن علم الشيخ العلامة الحسن بن الخالد القبائلي، أستاذه السابق الذي بقي يتردد على الزاوية عدة سنوات بعد وفاة والده، وقد خصص له الشيخ محمد الحفناوي جراية مالية سنوية كما صرح بذلك في أحد مخطوطاته كما ظل على صلة وثيقة بالشيخ العلامة محمد بن عمار الطلحي، أحد تلاميذ الشيخ الحداد وكبير مقادميه في المنطقة ورفيق والده في مرحلة الطلب في منطقة صدوق ببلاد القبائل، ثم إعتمد على نفسه، وانكب على

المطالعة الحرة، حتى صار من كبار الفقهاء في قالمة وضواحيها .

عرفت الزاوية في عهده شهرة كبيرة، فكانت بمثابة معهد ديني جهوي كبير، يؤمها طلبة القرآن الكريم والعلوم الشرعية، من كل حدب وصوب، وتقوم بالفصل في المنازعات بين الناس، واكتسب الشيخ محمد الحفناوي شهرة كبيرة، حتى صار الكثير من النساء والرجال الأميين الطيبين يحلفون برأسه، ولم يكن- رحمه الله تعالى- على علم بهذا الحلف، لأنه مشمول بقول رسول الله صلى الله عليه وسلم: (من حلف بغير الله فقد كفر أوأشرك) كما لم يكن (أبناؤه وطلبته الفقهاء، على علم بذلك)[2] .

و قد أقلق هذا النشاط والحيوية اللذان عرفتهما الزاوية في بداية عهدته، الإدارة الفرنسية، فقررت تقييد حريته كما فعلت مع والده من قبل، فمنعته من الإنتقال خارج زاويته بدون رخصة ، يمنحها له الحاكم المقيم بالمشروحة بالقرب من سوق أهراس، وعندما يزور مدينة قالمة يجب أن يمثل أمام نائب عامل العمالة ليؤشر على هذه الرخصة وهذا نموذج من رخصة مسلمة له بتاريخ: 14جويلية1908 .

قام الشيخ محمد الحفناوي بأداء مناسك الحج مرتين الأولى سنة 1907، والثانية سنة 1913، وبعد أن أدى مناسك حجته الثانية عرج على دمشق الفيحاء عاصمة بني أمية، فزار بها ضريح الأمير عبدالقادر الذي ترجم له فيما بعد، كما سنرى، ثم زار مدينة بيروت والقدس الشريف، وصلى بالمسجد الأقصى، ثم ذهب إلى مدينة الخليل عليه الصلاة والسلام وصلى بمسجدها، وزار مدينة يافا، ثم انتقل إلى مصر، فزار الإسكندرية والقاهرة ، وانتقل إلى ليبيا فزار بها بنغازي وطرابس، ثم زار تونس، وقفل عائدا إلى الجزائر بحرا عن ميناء عنابة، وبعد عودته إلى زاويته شرع في تسجيل أحداث هذه الرحلة في سجل ضخم، دون فيه ما جرى خلالها من لحظة الإنطلاق في يوم الخميس 23 من شهر ذي القعدة 1331 الموافق لـ 23 أكتوبر 1913 إلى لحظة الرجوع إلى زاويته في يوم الإثنين 04 جمادى الأولى 1332 هـ الموافق لـ 30 مارس 1914 بكل التفاصيل . و استمر في تسجيل نشاطه وأحداث الزاوية منذ ذلك التاريخ إلى يوم 28 مارس 1928 حيث توقف عن التسجيل لأسباب لم يصرح بها، وقد كتب مقدمة لدفتر يومياته الضخم، تحدث فيها عن الجهود التي اضطلعت بها هذه الزاوية في عهد والده، وفي عهده، ثم تحدث عن قضايا ذات أبعاد فكرية إصلاحية، تتعلق بأحوال الأمة المتدهورة، ودعا النخبة إلى معالجة تلك الأوضاع، للنهوض

2 - الحديث رواه الترميذي، وحسنه وصححه الحاكم

بالأمة وإخراجها من تحت الهيمنة الإستعمارية، و قد جره السياق للحديث عن الأسباب والمبررات التي جعلت فرنسا تستعمر الجزائر، وكيف تسلسلت الأحداث بعد ذلك من مبايعة الأمير عبد القادر المبايعة الشرعية كما يقول في رجب الفرد عام 1248 الى تاريخ وفاته في رجب 1300 فلنستمع اليه في هذا السرد التاريخي وهو يخاطب الامة قائلا : (لايخفى عليك ايتها الامة الشريفة المحمدية، أن سبب إستيلاء الاجانب على الاقطار الجزائرية، هو الخروج عن طاعة الدولة الاسلامية، والتعصب والحمية والتنافر الجاهلي، فحصل بين والي الجزائر ، ووكلاء الدولة الاجنبية في الاموال التجارية شقاق في مجلسه، فضرب بمروحته وكيل الدولة الفرانسوية – كذا– فغضب ، واخبر دولته ، فقامت قيامتهم لذلك ، ثم طلبوا منه ترضية الوكيل والدولة فأبى. وارسل اليه سلطان المسلمين يحذره وينصحه فأبى. وارسل اليه والي مصر محمد علي ينصحه فأبى. فلما تحققت الاجانب من تعصبه وتكبره واستبداده برايه هاجمته بمراكبها ورجالها وخيلها من مرسى الجزائر، واحتلت العاصمة من ذلك الوقت الى يومنا هذا، واخذت الوالي اسيرا ، وجميع مافي خزائنه غنيمة باردة، واصبح القطر الجزائري من يومه في يد الاجنبي ، فانزعجت لهذه المصيبة العظيمة الامة الاسلامية عموما واهل القطر خصوصا، فافتكروا وتدابروا وتشاوروا فيمن يليق ويكون اميرا عليهم، ليقوم بهذا المنصب الخطير، ويدافع عن الوطن . فاجمعوا امرهم، واتحدوا في كلمتهم، واتفقوا في رايهم على السلالة المحمدية الفاطمية العلوية الحسينية ، ثم لما علم من نفسه عدم القيام بهذا الامر الخطير بسبب الكبر ونحوه، احال الامة على ابنه الخطير، البطل الشهير، الولي الكبير، السراج المنير، العلامة النحرير، امير العلماء، وعالم الامراء الامير عبد القادر بن محي الدين بن المصطفى بن محمد بن المختار بن عبد القادر بن احمد بن عبد القادر بن احمد بن محمد بن عبد القوي بن علي بن احمد بن عبد القوي بن خالد بن يوسف بن احمد بن بشار بن احمد بن محمد بن مسعود بن طاووس بن يعقوب بن عبد القوي بن احمد بن محمد بن ادريس بن ادريس بن عبد الله الكامل بن الحسن المثنى بن الحسن سبط الرسول بن علي بن ابي طالب بن عبد المطلب بن هاشم وام الحسن فاطمة بنت سيدنا ونبينا محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم بن عبد الله بن عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف، فلبى دعوة ابيه ، وبايعه اهل الوطن الجزائري المبايعة الشرعية ، وولوه القيام بامر الجهاد وقيادة البلاد لتطهيرها من اهل الفساد وذلك في رجب الفرد 1228 . فقام بالامر اتم قيام ، وجمع كلمة المسلمين، وشتت شمل المفسدين، قاتل وجاهد الكفرة اعداء الدين،

مايزيد على خمسة عشر سنة، ولم يزل على ما عاهد عليه الله وعباده، بنصرة الدين والمسلمين ،وخفض وكسر شوكة الكفرة اعدائه، حتى هاجمه سلطان المغرب عبد الرحمن بن هشام بخمسين الف مقاتل، فقام على ذلك قيام الابطال، وقاتلهم احسن قتال وذلك في3 محرم عام 1264 هـ، ولما راى ان الثبات لمقاومة هاتين الدولتين العظيمتين لاسبيل اليه، استشار رجاله في المجانحة الى السلم بشروط ،مع دولة فرنسا ،فوافقوه على ذلك، وفي الوقت خابر قائد الجيوش الفرنسوية بالتسليم على شروط قررها له، فاجابه فورا الى ما طلبه واشترطه، ثم خصصوا له مركبا حربيا، فحمله ومن معه من عائلته ،ومن اتبعه الى طولون، ومنها الى امبواز، فاقام بها اربع سنين وستة اشهر، ولما افضي امر فرنسا الى نابليون الثالث زاره بمقامه، وتاسف تاسفا

عظيما على تاخير الوفاء بانجاز الشروط، وفي الوقت امر بمركب حربي له ولمن معه، فركب الامير وغيره ،وسافر الى الاستانة العلية، فتلقاه بعض الوزراء على الميناء، وذهبوا به الى الحضرة السلطانية للسلطان العظيم الشان عبد المجيد خان، فاحتفل بقدومه احتفالا عظيما، وعامله بما يليق بمثله، واكرمه غاية الاكرام، وانعم عليه بدار عظيمة في مدينة بروسة ،فسكنها باهله وحشمه واقبل على بث العلم وافادة الناس. وفي عام 1271 عزم على مبارحة بروسة لتوالي الزلالزل الهائلة بها، فاختار الاقامة بدمشق الشام ،فاتى اليها، فتلقاه اهلها

1) أشار المؤرخ الجزائري الشيخ عبد الرحمان الجيلالي إلى هذا الإقتتال في الجزء الرابع من تاريخ الجزائر العام صفحة 233 طبعة دار الثقافة بيروت لبنان 1980.

– وهناك اشارة إلى ذلك في كتاب المؤرخ الكبير الأستاذ الدكتور بلقاسم سعد الله الموسوم: بالحركة الوطنية الجزائرية ص 56–55 مطبعة دار الأدب بيروت 1969.

باحتفال عظيم ،وانزلته الدولة العلية في احسن دار، وطابت له الايام فيها، ولم يزل على عادته الطيبة المباركة في الاجتهاد على عبادة الله تعالئ، وبث العلوم، ونصيحة الخلق، والسعي في مصالح الأنام، حتى توفاه الله سبحانه وتعالى، ورحمه الرحمة الواسعة، في منتصف ليلة السبت من شهر رجب الفرد عام 1300هـ ، فتولى غسله وتكفينه نزيله الشيخ عبد الرحمن عليش أحد علماء الازهر بمصر، وحمل، نعشه إلى الجامع الأموي، وبعد الصلاة عليه شيعه أهل دمشق بغاية الإحتفال والتعظيم، ولم يزالوا سائرين بجنازته إلى

3 - أشار المؤرخ الجزائري الشيخ عبد الرحمان الجيلالي إلى هذا الإقتتال في الجزء الرابع من تاريخ الجزائر العام صفحة 233 طبعة دار الثقافة بيروت لبنان 1980

أن أوصلوه إلى حجرة الشيخ محي الدين بن عربي الحاتمي صاحب الفتوحات المكية، فدفن في جواره، ورجع الناس متأسفين على فراقه، لمحاسن أوصافه، ومكارم أخلاقه، طيب الله ثراه، وجعل الجنة متقبله ومثواه، آمين والحمد لله رب العالمين.)

وفي الفقرة الموالية لهذه الترجمة المختصرة المكثفة المشحونة بصور الإعجاب والإكبار والإجلال والتعظيم، لشخصية هذا الأمير العالم الرباني ،البطل المجاهد ،يلتف الشيخ محمد الحفناوي إلى أبناء أمته الإسلامية عموما، وأبناء الجزائر على الخصوص، ويطلق هذه الصرخة الوطنية الواضحة، والوخزة النقدية الجارحة فيقول: (أيها المسلمون عموما ،وأهل الجزائر خصوصا ،إن كنتم أحياء لا أمواتا، أنظروا بنظر تأمل ويقين، لا ينظر تخمين أو سقيم، إن سبب إحتلال بلدان الإسلام و المسلمين في مشارق الأرض و مغاربها بالكفرة الطغام، أعداء الملة و الدين، هو التخاذل و التعادي، و التنافر و التشاحن من ملوك المسلمين لبعضهم، بل و اعانة أعدائهم على إخوانهم ،فحصل للمسلمين الضعف، و لغيرهم القوة بما تقدم، و لما ملكوا الأقطار و الرقاب، كالأندلس، و الجزائر، و المغرب، و جميع افريقيا كطرابلس، و مصر، و السودان الغربي، و الشرقي، و غيرها من بلدان الإسلام ،مع مساعدة الأيام لهم في ذلك .

و لما تحققوا بعقولهم و تيقنوا بقلوبهم ، أن قوتهم لا يغلبها غالب، و شوكتهم لا يسلم منها هارب، أجمعوا أمرهم ، و اتفق رأيهم على اقتسام أملاك الدولة العلية العثمانية بينهم ، بعد انسلاخ جل أملاكها

- بسبب الحروب العمومية الكبرى - كالحجاز و الشام و بغداد و القدس، و السواحل الشامية ،و تركيا أوربا ، فاحتلوا بوغاز الدردنيل و الأستانة - مؤقتا - و حرشوا اليونان على محاربة الأتراك، فاحتل إزمير و إزميت و ما بينهما ، ثم اجتمعوا بالإستانة بالسلطان وحيد الدين نصره الله و وزرائه، وأملوا عليه الشروط التي عقدت بسيفر ،فأمضوها بخطوط أيديهم ،و لما اطلع بعض رجال الدولة على تلك الشروط المهينة التي هي في الحقيقة عبارة عن ذبح تركيا ،و دفنها تحت أطباق الثرى، تمغص لذلك، و فر من الإستانة، و شرذمة قليلة من أهل الغيرة الإسلامية إلى أنقرة ، و استغاث بالأمة الإسلامية و غيرها كروسيا ،و اشتغل بتربية الجيوش النظامية و تدريبها ،و شرع في محاربة و رد كيد الكفرة أعداء الدين و الملة، المجاهد في سبيل الله

مصطفى كمال، و المجاهد الثاني أنور، نصرهما الله و المسلمين أجمعين في جميع الأقطار على جميع الكفار بجاه النبي المختار صلى الله عليه و سلم.

و قد زحف كمال بجيوشه المنصورة في محرم الحرام عام 1341هـ سبتمبر 1922 م فاحتل إزمير و ما والاها، و كسر جيوش الكفرة كسرة لا تقوم بعدها، وغنم غنائم لا تحصى كثرة، نصره الله ونصر به الإسلام و المسلمين أجمعين على الكفرة أعداء الدين، و دمر الله على يديه أمم الكفار أجمعين).

ففي النص السابق تذكير للمسلمين بأحداث التاريخ في سرد مشبوب بحرارة العاطفة المتأججة، في قلب رجل متألم، لما آل إليه حال أمته، من ضعف و هوان، و فرقة و تخاذل، و تقهقر، وتخلف، ووقوع تحت هيمنة الأجنبيي المحتل، ولم يتعظوا بأحداث التاريخ، ولم، يتحدوا ولم يتضامنوا ولم يتعاونوا على تغيير أوضاعهم المزرية فلنصغ إلى الشيخ محمد الحفناوي وهو يتحدث عن هذه الغفلة والبلادة وعدم الإتعاظ بأحداث التاريخ:

(ثم بعد هذه الدواهي كلها، لم يزل البعض من المسلمين على الحال الأولى، من النزاع والشقاق، والتنافر والتباغض، والتفاخر بالأحساب والأنساب، والمذاهب والطرق، والعوائد الجاهلية، والأخلاق الذميمة، والضلالات النارية، والشهوات النفسانية، والوساوس الشيطانية، والإياس والقنوط من التأييدات الربانية، والإستمدادات المحمدية، والأعمال المرضية، والتعويل على الغير في كل شيء، واستحالة النهوض وقيام الأمم بحقوقها بنفسها، وافتكاكها من يد الأجنبي، ولا سيما في القطر الجزائري، مع أن الواقع بخلاف ما يوسوس لهم الشيطان في قلوبهم، أو يرونه في أحلامهم، والشاهد في ذلك هاهي مصر نالت مناها وطردت الأجنبي، وهاهو الهند ساع في ذلك...).

ثم يدعو أمته الغارقة في أوحال الجهل، وسبات التخلف، والفكر الخرافي، وحمأة الفرقة والخلاف، والتناحر، إلى تغيير هذه الأوضاع بنهضة شاملة فيقول: (أيتها الأمة المحمدية تنبهي من غفلتك، واستيقظي من منامك، واستفيقي من تيهك وحيرتك، وانبذي الجهل والكسل والجبن والبخل، والبطالة والخرافة وراء ظهرك، وانهضي وقومي قيام رجل واحد مقتدر عاقل متدبر بصدق ونية وعزيمة و قريحة، واتحدي وتعاوني بشدة وجرأة وسخاء وشجاعة واستماتة، وتفاني في مطالبة حقوقك، وخدمة وطنك العزيز، وإحياء ما اندرس من مجدك، ومجد أسلافك الذي بلغ واستعلى في وقته الغاية القصوى، فقد قال الله تعالى:

«يا أيها الذين آمنوا إن تنصروا الله ينصركم، ويثبت أقدامكم» وقال تعالى: «يا أيها الذين آمنوا كونوا أنصارا[4] لله كما قال عيسى بن مريم للحواريين، من أنصاري الى الله، قال الحواريون: نحن أنصار الله فآمنت طائفة من بني اسرائيل وكفرت طائفة فأيدنا الذين آمنوا على عدوهم، فأصبحوا ظاهرين»[5]

والشيخ محمد الحفناوي يوظف أحداث التاريخ في خطابه الموجه لطلبته واخوانه وأبناء وطنه وأمته كلما جره السياق الى ذلك .ففي مخطوط له بعنوان : (كتاب الوقف) أوصى ابناءه واتباعه بالاتحاد والتعاون والانسجام، وحذرهم من سوء التفاهم والخصام، والتنازع والانقسام، ووجد الفرصة متاحة للعودة بالأذهان الى أحداث التاريخ، وما وقع بين ملوك الطوائف في الأندلس فقال : (وحيث كان لكل طالع أفول ، ولكل بداية نهاية ، ولكل شيء تم نقصان ، فوقع الشقاق والنفاق ، وسوء الأخلاق بين الأمة، حتى تفرقت وصارت فرقا وأحزابا ، وتركت الجماعة، والعمل بالكتاب والسنة، واجماع الأمة، وجارت ملوكها على الرعية، وتركوا العدل والانصاف، فخرجت الرعية على طاعة الملوك والأمراء والرؤساء، فحصل بسبب ذلك العداوة والبغضاء ،وحب الرئاسة بينهم ، وشرعوا في مقاتلة بعضهم بعضا ،وانتصار بعضهم على بعض بالأجانب ، كما وقع لملوك الطوائف بالأندلس حسب ما هو مذكور في علم التاريخ لابن خلدون وغيره ، ففشلت قوتهم، وتكسرت شوكتهم، وتشتت شملهم، وتفرقت كلمتهم، وآل أمر الأمة في مشارق الأرض ومغاربها الى ماهو عليه الحال وليس الخبر كالعيان، ولا حول ولا قوة الا بالله العلي العظيم).

ثم اورد في نهاية هذا المخطوط القصة الآتية فقال :

– (اعلموا اخواني هداني الله واياكم الى سبيل الفلاح ، وأعاننا على جميع مافيه الخير والصلاح قال صاحب كتاب (آثار الأول في ترتيب الدول) قيل ان الاسكندر كانت بين يديه كرة مثمنة من الذهب، وضعها له الحكيم أرسطا طاليس، على كل جهة منها كلمة سياسية ، تتعلق كل واحدة بالأخرى، لتكون بين يديه يقلبها في حركاته، ويعمل بما فيها وهي هذه :

- العلم بستان سياجه الدولة
- الدولة سلطان تحفظها السنة
- السنة شريعة يحوطها الملك

4 - -1الآية رقم 7 من سورة محمد.
5 - -2الآية رقم 14 من سورة الصف.

- الملك راع يعضده الجند
- الجندأعوان يكفلهم المال
- المال رزق تجمعه الرعية
- الرعية خدام يتعبدهم العدل
- العدل مألوف وبه صلاح العالم

ثم قال : فحقيقة لمن قلده الله أمر عباده وبلاده، أن يعطف عليهم، ويعدل فيهم، وينصف ضعيفهم من قويهم ، ويساوي في الحق بين شريفهم ومشروفهم ، ويبتدىء أولا بالانصاف من نفسه وولده وخاصته ، فالناس على دين الملك كما قيل ، أي يتبعونه في أقوالهم وأفعالهم .

(تنبيه) ينبغي ويتأكد على كل عاقل لبيب، التامل فيه فقد لا يخفى على اخواني أن اللبيب بالاشارة والتلميح يفهم ، وان القطر الجزائري صار مستعمرة خالصة للحكومة الحالية فاذا اراد الله بنا وبجميع أهل القطر الجزائري خيرا وفقا للعمل بالكتاب والسنة واجماع الأمة) .

ثم جره السياق للحديث عن شرذمة من عملاء فرنسا الذين يساعدون المستدمرين بكل ما يملكون من نفس ومال وجاه، لتحقيق اهداف فرنسا في بلادهم ، من أجل الحصول على امتيازات تافهة رخيصة فخاطبهم بأسلوب من التهكم الساخر الممزوج بالحسرة والألم فقال :(وها هو الوطن الجزائرى يفتخر على الجميع ببذل النفس، والمال، والرجال ،والجاه للأجنبي، ليحظى عنده بالمحبة الصافية، والوسامات التشريفية، والمناصب السامية، والغرض الوحيد الذي يكون به في وظيفته هنيئا حميدا حبيبا إنما هو أمران:

الأول: موافقة الأجنبي في قوله وفعله، ثم إعانته بالقلب الخالص، والمال الوافر.

والثاني: معاكسته لكل عبد مسلم في جميع أحواله وهضم حقوقه الدينية والدنيوية واضطهاده ، وقهره، واهانته بأنواع الإهانة ولاسيما عند آداء الضرائب والمغارم، واذا قام عالم او صالح او فرد من الأمة قام بطلب حق أو التشكي من المظالم أو غير ذلك، سعى به، ووشى إلى أعداء الدين والملة والأمة، فيأمرون بإحضاره ثم يكون لهم الإختيار في كيفية معاقبته، فإن شاءوا سموه، وإن شاءوا نفوه، وإن شاءوا سجنوه، وإن شاءوا أخرجوه من ماله ووطنه فعلوا).

إن هذه النصوص التي أوردناها أيها السادة الكرام، تلخص مواقف الشيخ محمد

الحفناوي وأفكاره في ماآلت إليه أوضاع أمته من انحطاط وتدهور، وضعف وتخلف، وتبعية وخضوع لهيمنة الإستعمار، ولم يتوقف عند حدود التشخيص وذكر الأسباب ولكنه دعا أمته إلى التأمل فيما وصلت إليه الأمم الأخرى من اتحاد وتعاون، وتكامل وتضامن، ونهضة وعمران، وتقدم ونفوذ وسلطان فقال: (على الأمة المحمدية ان شكت في الأصول والأسس المتقدمة، الإعتبار والنظر للأمم الأجنبية، ففي ذلك كفاية لها عن سياق الأدلة النقلية والعقلية، فبإتحاد الأمم وتعاونها، قهرت الأمم المجاورة لها والنائية عنها، واستعمرت أوطانها، واستفادت واستبدت بفوائدها. وباتحاد الأمم وتعاونها مدت السكك الحديدية، والطرق الحجرية في السهل والحزن، والتلغرافات اللاسلكية القلمية واللسانية، بل والهوائية في البراري والبحار. وباتحاد الأمم وتعاونها عمرت الصحاري والقفار، وأحيت الأماكن الميتة، وباتحاد الأمم وتعاونها أحيت الحرف المهمة، كالفلاحة، والتجارة، والحدادة والنجارة، والبناء وبناء الجسور والقناطر للعامة، وباتحاد الأمم وتعاونها حصنت الثغور والمراسي وبنت المستشفيات والمرستانات للمرضى، والفنادق للمسافرين، والقصور- كذا- للعساكر والجنود الحربية، وأعدت في كل بلدة ومدينة الشركات المالية، وحرضت أغنياءها وفقراءها على الإشتراك فيها، وبنت في كل قرية كنيسة ومكتبا، وفي كل مدينة مكاتب ومدارس، وجعلت العلم حتما مقضيا، ولا أقول بعد هذا إلا كما قال عليه الصلاة والسلام، وليس الخبر كالعيان).

وفي الجانب الإجتماعي تحدث عن مخاطر الفقر والحرمان والبطالة والمرض والأمية والجهل وأسس على مستوى الزاوية تنظيما إجتماعيا لمحاربة هذه الآفات سماه :(الجمعية الخيرية الإسلامية) وأنشأ فروعا لها عبر القرى والمدن والأرياف، ووضع تصورا نظريا نص على مساعدة الفقراء والمساكين، واليتامى والمنكوبين والمرضى والمدينين، وطلبة العلم وعابري السبيل، وفتح المجال أمام الأغنياء للإستثمار، في مشاريع الجمعية الخيرية الإسلامية وفروعها، على أن يخصص جزء من الفوائد السنوية، لمساعدة البطالين، ومن يحفر بئرا أو يحيي أرضا ميتة، أو يزوج ولدا ويكون في حاجة إلى دعم، كما يوجه قدر من هذه الفوائد إلى المساهمة في بناء المساجد والمدارس القرآنية والعلمية، ثم حث الجمعيات والمساهمين في مشاريعها على شراء الأراضي والعقارات التي تصادر من أصحابها، ثم توضع للبيع في المزاد العلني مهما كان ثمنها، وإعادتها إلى ذويها ليعيشوا في حياة كريمة، ويتعلق هذا البند من نشاط الجمعيات بالأراضي والعقارات التي يرهنها أصحابها تحت ضغط

الفقر والإحتياج، ثم لا يجدون القدرة على تسديد ما أخذوه مقابلها من أموال، أو تلك التي يعجز أصحابها عن تسديد الضرائب الباهضة التي تفرضها عليهم الإدارة الفرنسية وتوضع للبيع في المزاد العلني، وتؤول ملكيتها في الغالب إلى المعمرين، والشيخ محمد الحفناوي يتصدى بهذا الطرح لمخطط الإستعمار الرامي إلى تجريد المواطنين من ممتلكاتهم بشتى الذرائع والمبررات الواهية. كما لفت الأنظار إلى النظم الإجتماعية السائدة في المجتمعات الغربية المتحضرة وخاصة في المجال التربوي كالتعليم الإجباري وفي المجال المالي، كإنشاء مؤسسات ذات أسهم متعددة، منوها بما وصلت إليه هذه الأمم من تعاون، داعيا إلى الإستفادة من تجاربها، مشددا على تعليم البنين والبنات العلوم الشرعية، والصناعات والحرف الهامة التي لا قوام للأمة إلا بها، كالخياطة والنسيج والطرز والحلاقة للبنات، والفلاحة والخضارة والتجارة والنجارة والحدادة والبناء والخرز للبنين، على أن تتوج عملية التكوين بمنح شهادات للخريجين من الجنسين، وتشجيع المتخرجين الذكور على الزواج من المتخرجات، ثم يعين كل زوجين في ناحية من النواحي ليعلم الرجال الذكور من الأبناء، وتعلم النساء البنات، والذي يتأمل هذه الأفكار التي دونها الشيخ محمد الحفناوي في النظام الداخلي الذي وضعه للجمعية الخيرية الإسلامية التي كان يرأسها بنفسه، وللفروع التي أوصى إخوانه بإنشائها عبر القرى والأرياف والمدن، يدرك أن هذا الشيخ لم تكن مهمته تقتصر على تحفيظ القرآن الكريم لطلبته، وتعليمهم فقه العبادات والمعاملات فحسب، ولكن الرجل كان له تصور متقدم لنظام إجتماعي مستمد من مقاصد الشريعة الإسلامية الصالحة لكل زمان ومكان، وهو بما ذكرنا له من مواقف وأفكار سياسية وإجتماعية جريئة ومتميزة بالنسبة لوقته جدير في نظرنا أن يرتقي إلى مصاف أعلام ورجالات هذا الوطن الكبار.

وفي الجانب الديني: خصص هذا الشيخ عدة فصول من مخطوط سماه: (تشويق المحبين) لشرح الحديث النبوي الشريف الذي رواه أبو رقية تميم بن أوس الداري عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال: «**الدين النصيحة**، قلنا لمن يا رسول الله ؟ قال: **لله، ولكتابه، ولرسوله، ولأئمة المسلمين وعامتهم**».

فقال: (النصيحة كلمة جامعة لخيري الدنيا والآخرة ومعناها إخلاص الرأي وإرادة الخير للمنصوح).

وفي معنى وجوب النصيحة في حق الله تعالى يقول: (قال الخطابي وغيره من العلماء: هي الإيمان بالله تعالى، ونفي الشريك عنه، وترك الإلحاد في صفاته وأسمائه ووصفه

بصفات الكمال والجلال كلها، وتنزيهه سبحانه وتعالى، والقيام بطاعته، واجتناب معصيته، والحب فيه، والبغض فيه، وموالاة من أطاعه ومعاداة من عاداه، وجهاد من كفر به، والاعتراف بنعمه، وشكره عليها، والاخلاص في جميع الامور، والدعاء الى جميع ذلك، والحث عليها والتلطف بالناس ومن امكن منهم في الدعوة والحث عليها قال: وحقيقة هذه الاوصاف راجعة الى العبد في نصحه نفسه، فالله تعالى غني عن نصح الناصحين).

وفي معنى وجوب النصيحة في حق كتاب الله تعالى يقول: (قال الخطابي: هي الايمان بأنه كتاب الله تعالى، وتنزيله لايشبهه شيئ من كلام الخلق، ولايقدر على مثله احد من الخلق، ثم تعظيمه وتلاوته حق تلاوته، وتحسينها والخشوع عندها، وإقامة حروفه في التلاوة، والذب عنه لتأويل المحرفين، والتصديق بما فيه والوقوف عند أحكامه، وتفهم علومه وأمثاله، والاعتناء بموعظته، والتفكير في عجائبه، والعمل بمحكمه، والتسليم بمتشابهه، والبحث عن عمومه وخصوصه، وناسخه ومنسوخه، ونشرعلومه، والدعاء اليه، وايضا قال :وحقيقة هذه الاوصاف راجعة الى العبد في نصحه نفسه، وإلا فكتاب الله غني عن نصح الناصحين).

وفي معنى النصيحة في حق رسول الله صلى الله عليه وسلم قال:(هي تصديقه برسالته، والايمان بجميع ماجاء به، وطاعته في امره ونهيه، ونصرته حيا وميتا، ومعاداة من عاداه، وموالاة من والاه، وإعظام حقه، وتوقيره، وإحياء طريقته وسنته، وبث دعوته، ونفي التهمة عن سنته، ونشر علومها، والتفقه في معانيها، والدعاء اليها، والتلطف في معالمها، وإعظامها، وإجلالها، والتأدب عند قراءتها، والامساك عن الكلام فيها بغير علم، وإجلال اهلها، لإنتسابهم إليها، والتخلق بأخلاقه، والتأدب بآدابه، ومحبة اهل بيته واصحابه، ومجانبة من ابتدع في سنته او تعرض لاحد من الصحابة).

وفي معنى وجوب النصيحة في حق ائمة المسلمين يقول:(هي معاونتهم على الحق وطاعتهم فيه، وامرهم به، وتنبيههم وتذكيرهم برفق وتلطف، واعلامهم بما غفلوا عنه ولم يبلغهم من حقوق المسلمين، وترك الخروج عليهم، وتأليف قلوب الناس لطاعتهم، ثم قال: قال الخطابي: (ومن النصيحة لهم الصلاة خلفهم، والجهاد معهم، وآداء الصدقات لهم إذا كانوا ذوي عدل، والا صرفها اربابها لمستحقيها، اذا امكنهم ذلك من غير اذى يلحقهم بسبب ذلك، وان لايغروا بالثناء والكذب عليهم، وان يدعى لهم بالصلاح) قال ابن فرج

:الأندلسي : «هذا كله على أن المراد من أئمة المسلمين الخلفاء وغيرهم ممن يقوم بأمور المسلمين من أصحاب الولايات ، هذا هو المشهور» وحكاه الخطابي ثم قال : «وقد يتأول ذلك على الأئمة الذين هم علماء الدين ، وان من نصيحتهم قبول ما رووه، وتقليدهم في الأحكام، واحسان الظن بهم ، ونشر مناقبهم».

وفي فصل من هذا المخطوط بعنوان (بيان من يجب عليه القيام بأمر الأمة والدين) يقول : (..بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم وخلفائه الراشدين المهديين رضي الله عنهم، ونفعنا ببركاتهم اجمعين، فالواجب شرعا يتعلق بسلطان الأمة ، وهو الخليفة لله ولرسوله صلى الله عليه وسلم ، ويجب على كافة الأمة السمع والطاعة والتعظيم والاحترام، والاكرام له.)

و في فصل آخر سماه:(وجوب المبايعة والمعاهدة) أكد على السمع والطاعة ظاهرا وباطنا للوفاء بما وقعت عليه المبايعة، في فعل كل معروف وخير وصلاح ، ورشاد وسداد ، وترك كل منكر وشر وفساد، وضلال وباطل للعباد والبلاد ، ثم أورد أدلة نقلية خاصة بالبيعة فقال : (قال عبادة بن الصامت رضي الله عنه : بايعنا رسول الله صلى الله عليه وسلم، على السمع والطاعة في العسر واليسر، والمنشط والمكره، وعلى أثرته علينا، وعلى أن لا ننازع الأمر أهله ، وعلى أن نقول الحق أينما كنا . قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : «**الا أن تروا كفرا بواحا عندكم من الله فيه برهان**»، رواه البخاري و مسلم .قال الامام النووي في شرح مسلم : وأما الخروج عليهم - أي ولاة الأمور - فحرام بإجماع المسلمين ، وقد تظاهرت الأحاديث في ذلك، فعن ابن العباس رضي الله عنهما قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : «**من رأى من أميره شيئا يكرهه ، فليصبر ، فانه ليس أحد يفارق الجماعة شبرا ، فيموت الا مات ميتة جاهلية**». رواه البخاري مسلم .

وفي معنى وجوب النصيحة في حق عامة المسلمين يقول : (هي ارشادهم لمصالحهم في امر دنياهم وآخرتهم، واعانتهم عليها بالقول والفعل، وستر عوراتهم، وسد خلاتهم ، ودفع المضار عنهم، وجلب المنافع لهم، وأمرهم بالمعروف، ونهيهم عن المنكر برفق واخلاص، والشفقة عليهم، وتوقير كبيرهم، ورحمة صغيرهم، وتخويلهم بالموعظة الحسنة، وترك عتابهم وحسدهم، وأن يحب لهم ما يحب لنفسه من الخير، ويكره لهم ما يكره لنفسه من المكروه، والذب عن أموالهم وأعراضهم، وغير ذلك من أحوالهم بالقول

والفعل، وحثهم على التخلق بجميع ما ذكرناه من أنواع النصيحة، وتنشيط هممهم الى الطاعات).

وفي مجال حقوق المسلم على أخيه المسلم أورد حديثا رواه سيدنا علي بن أبي طالب كرم الله وجهه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : « **للمسلم على المسلم ثلاثون حقا لا براءة له منها الا بالأداء أو العفو. يغفر زلته، ويرحم عبرته، ويستر عورته، ويقيل عثرته، ويقبل معذرته، ويرد غيبته، ويديم نصيحته، ويحفظ خلته، ويرعى ذمته، ويعود مرضته، ويشهد منيته ، ويجيب دعوته، ويقبل هديته، ويكافي صلته، ويشكر نعمته، ويحسن نصرته، ويحفظ حليلته، ويقضي حاجته ، ويشفع مسألته، ويقبل شفاعته. ولا يخيب مقصده، ويشمت عطسته، وينشد ضالته، ويرد سلامه، ويطيب كلامه، ويزيد انعامه، ويصدق إقسامه، وينصره ظالما او مظلوما، اما نصره ظالما فيرده عن ظلمه، واما نصره مظلوما فيعينه على اخذ حقه، ويواليه ولايعاديه ويسلمه ولايخذله، ويحب له من الخير مايحب لنفسه، ويكره له من الشر مايكره لنفسه**».

وهناك العديد من المواضيع التي حفل بها مخطوط : (تشويق المحبين) نكتفي بذكر عناوينها الآتية: (حقيقة الايمان والاسلام والاحسان- قيام الرسل بالمحافظة على الدين وقواعده - وجوب الطاعة لاولي الامر - ملازمة الجماعة وعدم الخروج عليها - وجوب الامر بالمعروف والنهي عن المنكر - محاربة البدع والضلالات - وجوب العدل والانصاف بين الرعية على الامراء والحكام - تدوير اموال الاغنياء على الفقراء والمساكين والمكروبين ، والمجاهدين وخيلهم - وجوب التعاون والتناصر بين المسلمين في الدنيا والدين - التوافق والائتلاف والاتحاد - الكليات الخمس (حفظ الدين - الانساب- الاعراض - العقول - الاموال) - الكبائر من الذنوب ومايلحق بها - صنائع وحرف الانبياء عليهم الصلاة والسلام- الاصول الجامعة للخير .)

مخطوطاته :

أولى الشيخ محمد الحفناوي للكتابة والتسجيل عناية فائقة، فسجل خواطره وأفكاره وملاحظاته في دفاتر عديدة منها الكبير، ومنها المتوسط والصغير، وقد تمكنت من الإطلاع على مخطوطاته الآتية:

1- سعادة الآنام في اتباع دين الإسلام: كتب هذا المخطوط في دفتر كبير الحجم، وضع

له مقدمة وقسمه إلى أبواب لم يذكر تسميتها، ثم وزع عليها الأحاديث النبوية الشريفة بدون سند، وعندما أمعنت فيها النظر، وجدت أن توزيعها على هذه الأبواب تم بحسب مواضيع حددها مسبقا. وتتناول في مجموعها إصلاح العقيدة، وفقه العبادات والمعاملات، والإتحاد والتماسك والتعاون، وقيم التسامح والتعاضد والتآزر والتكافل الاجتماعي، والترغيب في طلب العلم، والدعوة إلى التمسك بكتاب الله تعالى وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم، واجماع الامة، والتحذير من التناحر والصراع. وكان الشيخ محمد الحفناوي يسرد على طلبته وضيوفه أحاديث هذا المخطوط في المناسبات الدينية، وصرح بذلك في دفتر يومياته، واغلب الظن أنه أغفل تسمية الأبواب خوفا من الإدارة الإستعمارية التي كانت تراقب نشاطه، ووضعت بعض العيون من الخونة لتتبع ما خفي عليها من نشاط هذه الزاوية.

2- له مخطوط آخر جمع فيه قدرا كبيرا من الأحاديث النبوية الشريفة لم يذكر اسمه، ولست أدري أهو جزء ثان للمخطوط الاول أم عمل مستقل بذاته.

3- له مخطوط كتبه في دفتر صغير تحدث فيه عن حياة وقصص الأنبياء والرسل عليهم الصلاة والسلام الذين ورد ذكرهم في القرآن الكريم.

4- له مخطوط كتبه في دفتر متوسط سماه: (كتاب الوقف) ضمنه النظام الداخلي للزاوية التي أوقفها على خدمة القرآن الكريم، والعلوم الشرعية، خلفا عن سلف توقيفا مؤبدا إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها وهو خير الوارثين.

5- له دفتر ضخم سجل فيه نشاطه في الزاوية في الفترة مابين 11 أكتوبر 1913 و 28 مارس 1928 كتب له مقدمة طويلة ضمنها آراءه وأفكاره في أوضاع الأمة ومسيرتها التاريخية، ومنها أخذنا النصوص التي ذكرناها من قبل في هذه المداخلة.

6- له مخطوط كتبه في دفتر متوسط الحجم غير مرقم سماه (تشويق المحبين). قسمه إلى مقدمة وأبواب، تشتمل في مجموعها على مواضيع دينية أوردنا نماذج منها، وذكرنا عناوينها فيما سبق من هذا العرض.

7- له مخطوط كتبه في دفتر متوسط الحجم غير مرقم تحدث فيه عن الجمعية الخيرية الإسلامية وفروعها، وكتب فيه النظام الداخلي لهذه الجمعية.

8- له مخطوط في دفتر كبير سماه (مواهب الرحمان) وضع له مقدمة، وتناول في أبوابه المختلفة قضايا كثيرة مها ما يتعلق بالتوحيد، ومسائل فقهية، ومنها ما تحدث فيه عن الخلفاء الراشدين، وفقهاء أهل السنة أصحاب المذاهب الأربعة، ومنها ما يتعلق بتاريخ الطريقة الرحمانية مع مسائل أخرى مختلفة.

9- له مخطوط متوسط الحجم كتب فيه وصايا لأبنائه وأفراد عائلته.

وهناك مخطوطات أخرى لا تزال عند أفراد من عائلة بديار لم أطلع عليها بعد.

فهذه صورة مجملة عن حياة و آثار الشيخ العلامة محمد الحفناوي بديار الفقيه المصلح، والوطني الغيور الذي انتقل إلى الرفيق الأعلى يوم 05 جوان 1943 طيب الله ثراه وجعل الجنة متقبله ومثواه.